**دراسة تحليلية للمقطع الغزلي من قصيدة ( يا ليل الصبّ متى غده ؟ ) للحصري القيرواني وفق الاستعارة التصوّرية**

**إعداد طالب الدكتوراه : أحمد عبد العالي – جامعة تيزي وزو ( الجزائر )**

**المقطع الغزلي للحصري القيرواني من قصيدته ( يا ليل الصبّ متى غده ؟ )**

**يا ليل الصب متى غده أقيام الساعة موعدهُ ؟**

**رقد السُّمَّـــــارُ وأرّقـــــــــــهُ أسفٌ للبيـــن يـــــــردِّدُّهُ**

**فبكاه النّجــــــم ورق لهُ ممّــــا يرعـــــــاه يــــــرصدهُ**

**كلفٌ بغزالٍ ذي هيفٍ خوف الواشين يشرِّدهُ**

**نصبت عيناي له شركاً في النــوم فعـــزّ تصيدهُ**

**وكفى عجبــاً أني قنصٌ للسِّرب سبــــاني أغيدهُ**

**صنمٌ للفتـــــنةٍ منتصبٌ أهـــــــواهُ ولا أتعبَّـــــــــــــدُهُ**

**صاحٍ والخمرُ جَنَى فمِهِ سكرانُ اللحظ مُعرْبدُهُ**

**ينضو من مقلته سيفـــاً وكـــأن نعــــــــــــاساً يغمدهُ**

**فيريق دم العشّـــــاق به والـــــويل لمــــن يتقلَّـــــــــدهُ**

**كلاّ لا ذنبَ لمن قتلت عينـــــاه ولـــــم تقتل يــدهُ**

**يا من جحدت عيناه دمي وعلى خدَّيــهِ تــــــــورُّدهُ**

**خدّاك قد اعترفا بدمي فعلام جفونك تجحدهُ**

**إنّي لأعيذك مـــن قتلي وأظنّـــك لا تتـــــعمّــــدهُ**

ذهب كلّ من جورج لايكوف ومارك جونسون إلى اعتبار أنّ الاستعارة عملية ذهنية متعلّقة بجوهر عمل الفكر ، كونها المنطلق أو المحور الذي نستطيع من خلاله إدراك كلّ ما يحيط بنا من أنشطة وأعمال ملازمة لحياتنا اليومية ، وبالتالي فهي تتخطّى الإطار اللّغوي لتنقلنا إلى عالم آخر تفرضه التصوّرات المعرفية ، فالاستعارة لم تعد تقتصر على اللّغة كون النسق التصوّري العادي الذي يتحكّم في سلوكاتنا وتفكيرنا يكتسي صبغةً استعارية ، فهي آلية تستطيع من خلالها استيعاب وإدراك التصوّرات المجرّدة وخلق دلالات وحقائق جديدة في حياتنا ، ومادام أنّ نسقنا التصوّري استعاري فإنّ الاستعارة ليست زخرفة شعرية جمالية متعلّقة بانزياح اللغة ، وإنّما هي أداة رئيسية في حصول عملية الفهم ، إضافة إلى هذا فقد رأى الباحثان أنّ الاستعارات لا ترتكز على علاقة المشابهة ، فهي مجموعة ترابطات عبر مجالات معيّنة تخلق مشابهة تصوّرية يُؤخذ بها لتكون مشابهة حقيقية تحكمها ممارسات تجربة الشخص ، ومن فإنّ الاستعارات التصوّرية مبنية على ترابطات داخل تجربتنا .

شكّلت الاستعارة محوراً هاماً في النصوص الشعرية ، لاسيما أنّ البناء الذي يحكم هذا النوع من الخطابات يرتكز بالأساس عليها ، وقد فتحت الأبحاث والدراسات المعرفية أبواباً جديدة لمقاربة النصّ الشعري وضخّت دماءً جديدة في سبيل اكتشاف عوالم الكتابة ومقاصدها ، فالأدب كمنتوج ذهني لا يخرج عن النطاق الاستعاري لأنّه يُعتبر وسيلة أو أداة يستخدمها الكتّاب لنقل أفكارهم ومشاعرهم ومواقفهم باستخدام الاستعارات ، وعندما نكتشف معاني هذه الاستعارات يمكن أن نلِج إلى تمثيلات مفردات القصيدة وتراكيبها عن طريق الفكر ، من هذا المنطلق سنحاول في هذا البحث دراسة نصّ شعري غزلي للحصري القيرواني \_ والمتمثّل في مقطع من قصيدته ( يا ليلُ الصبّ متى غدهُ ؟ ) \_ دراسة تحليلة مبنية على مقاربة الاستعارة التصوّرية من خلال التطرّق إلى أربع نماذج استعارية هي ( العشق صيد ) ( العشق عبادة ) ( العشق خمر ) ( العشق حرب ) .

يتحقّق التشاكل في استعارة ( العشق صيد ) من خلال ظهور سمة مشتركة أولية تتضمّن وجود ضحيّة أو مستهدف ، هذا لا يعني بالضرورة أن العشق هو عبارة عن صيد ، بل قد يكون العشق مجموعة أوهام لم يفلح العاشق في تحقيقها أو ملامستها ، ومنه قد نجد عديد التوافقات النسقية بين الكيانات التي تنتمي إلى حقل العشق مثل : ( افتراض وجود عاشق ، علاقته بالمعشوق ، الهدف من هذه العلاقة ... الخ ) والكيانات التي تنتمي إلى مجال الصيد ( الصيّاد ، البحر ، البرّ ، المشاكل التي تحدث في عملية الصيد ، الهدف من الصّيد ... الخ ) ، وبالتالي فإنّ العشق يتوافق في جزء كبير منه مع الصيد ، لأنّ كلاً من العاشق والصيّاد يبحث عن مصدر حياته ، فالعاشق إنّما يبحث عن إسعاد نفسه من خلال ملاقاة محبوبته ، بينما الصيّاد يسعى إلى تسلية نفسه وسدّ حاجته ، ذلك أنّ العشق مرتبط في تصوّرات الشاعر بإدراكنا لمعنى عملية الصيد وفهمها ، والدليل على ذلك في قوله ( كلفٌ بغزالٍ ذي هيفٍ ) فهو مغرم بمحبوبته التي شبّهها بالغزال رقيق الخصر كما عادة العرب في الجاهلية عندما يشبّهون المحبوبة بهيّة الطلعة بحيوان الضبي أو الغزال ، ومنه يمكن أن نستخرج مجموعة من التصوّرات داخل هذا المقطع الغزلي كقوله ( نصبت عيناي لهُ شركاً ) فمثل ما يترصّد الصيّاد هدفه قصد الإمساك به فقد نصّب الشاعر عينه ليترصّد محبوبته ، فتصوّر العشق يُحيلنا إلى بناء تجربةٍ لأنّ القيام ببعض التجارب مثل ( النظر ، الحديث ، الشعور .. الخ ) باعتبارها تندرج في عشقٍ ما تقتضي جزئياً البنية المعطاة لتصوّر العشق من خلال استعارة ( العشق صيد ) ، وقول الشاعر ( وكفى عجباً أنّي قنص للسّرب سباني أغيده ) إنّما ليؤكد أنه بارع في الصيد لكنّه لم يستطع اصطياد محبوبته فعوضاً أن يصطادها اصطادته ، في هذا البيت تحديداً استخدم الشاعر بعض المصطلحات المتعلقة بحقل الصيد ( قنص ، السّرب ) ليريد بها التعبير عن محبوبته التي شبهها بالغزال الجميل الناعم ، لتتضح لنا علاقة الصيد بالعشق ومدى التقاء الشبكة المعرفية أو الأنساق التصورية بين المجالين .

في استعارة ( العشق عبادة ) يمكننا بناء مجموعة من التصوّرات التي تنضوي ضمن إطار التأويل أو التفكير اللاّمتناهي ، والذي بدوره يفتح الباب أمام خلق مجموعة جديدة من الأنساق أو المجالات ، من بين هذه التصوّرات :

- بدونك سيتوقّف نبض قلبي .

- سأموت لو تتركيني .

- عندما أكون بجانبك أولد من جديد .

وعندما نعود إلى قول الشاعر في البيت الأوّل ( يا ليل الصبّ متى غده ) فإنّنا ندرك أنه ينتظر بلهفة قدوم الغدِ الذي سيرى فيه معشوقته ، وبالتالي هو متشوّق إلى هذا اليوم الذي طال انتظاره ، وقد نعطي هذا التركيب تصوّراً آخر من خلال فهمنا للنسق المضمر الذي يوحي بأنّ هذا الانسان متشوّق للقاء ربّه يوم القيامة ، فوظّف لفظة قيام الساعة للتأكيد على بعد اليوم الذي يلتقي فيه بمعشوقته ، كما يظهر وجود الاستعارة التصورية في أكثر المفاهيم المجردة ( أطيعك ، أؤمن بك ، أصلّي لك .. الخ ) فهي توحي لنا بأنّ العشق تحكمه مجموعة من البنيات ( اللّطافة ، اللغة ، المشاعر ، الانجذاب ، الإخلاص ، العاطفة ، التعلّق ، الاشتياق ، السرور .. الخ ) ، وفي قول الشاعر ( أسفٌ للبين يردّده .. ) نجده قد أردف فكرة الفراق ( البين ) ويقصد بها أنّ فراق معشوقته قد جعله قلقاً ومضطرباً ، ومنه قد نلاحظ من استعارة ( العشق عبادة ) اتّفاقاً على مستوى الترابطات والبنيات المكوّنة لها ، فالفراق الذي تحدّث عنه الشاعر يرمي في النهاية إلى علاقته بمحبوبته ، وعلى هذا الأساس فإنّ العشق يجري مجرى العبادة لأنّ الإنسان إذا لم يُطِع خالقه فإنّ صلته به قد تنقطع ، أمّا التصوّر الآخر الذي يعكس أفكارنا أنّ العشق يحكمه طرفان ، وهذان الطرفان تربطهما علاقة حبّ شديدة تتحوّل فيما بعد إلى عشق وهيام ، ونتيجة هذا العشق قد تنتهي بقبولٍ أو تصادمٍ ، ولهذا نستطيع القول أنّ الشاعر في مقطعه السابق قد استعار ألفاظ العبادة واستعملها موضوع العشق ، لأنّ الفتاة التي يعشقها قد يصبح فيما بعد عبداً مطيعاً لهــــا ، أمّــــــا عن توظيف الشــــــاعر للفظة ( الويل ) مثـــــلاً في قولــــــــه ( والويل لمن تقلّده ) إنّما هو للتعبير عن العذاب الذي يطاله حينما يترك نفسه أمام أعين معشوقته ، فهذه اللفظة إنّما هي انعكاس للحالة التي يكون عليها الانسان حينما يقترف ذنباً ما .

لطالما تغنّى الشعراء القدامى بموضوعات العشق ، بل راح بعضهم يربطه ويصوّره بحالة النشوة التي تنتاب شارب الخمر والانتقال به إلى عوالم اللذّة والمتعة ، ولا شكّ أنّ شاعرنا ( الحصري القيرواني ) هو أحد هؤلاء ، فقدّ قدّم للعشق تصوّرات عديدة اتّصلت في معظمها بالخمر ، هذا لا يعني أنّ العشق يعدّ جزءاً من الخمر لأنّ العشق شيء معنويّ نابع من الوجدان ، في حين أنّ الخمر شيء مادي يعبّر عن حالة تغييب للعقل ، فحينما قال الشاعر ( رقد السمّار فأرّقه .. ) إنّما كان يقصد بلفظة السمّار السهر آخر الليل ، هذا الأخير يعتبر في حدّ ذاته نسقاً في نظامنا التصوّري لزمن شرب الخمر ، وبهذا فقد جعل العشق في منزلة الخمر وكشف ذلك عبر عدد من التعابير التي تصادف حياتنا مثل قوله ( .. وكأن نعاساً يغمده ) حيث شبّه الشاعر النعاس بإنسان يغمد السيف ، وبذلك تلتقي صورة العين الناعسة مع شارب الخمر حينما تسيطر عليه حالة الهياج والضياع الفكري ، وبالتالي فإنّنا نتعامل مع العشق باعتباره خمر له نشوة ولذّة ومتعة وحتى آثار صحيّة ، وقد نستعمل أنساقاً وأفكاراً أخرى مختلفة للتعبير عن هذه الاستعارة إذا ما اعتبرنا أنّ العشق هو عبارة عن ( إدمان ، سمر ، نسيان ، هذيان ، آفة ، وجع .. الخ ) ، فعندما قال الشاعر ( كلاّ لا ذنب لمن قتلت .. ) إنّما ليوضّح أنّه لا وزر عليه ، فهو لم يقتل بسيفه أو بيده إنّما بعينه ، وعليه فإنّ الذنب الذي قد يقترفه العاشق يأخذنا إلى صورة موازية ومرتبطة بالذنب الذي يقترفه شارب الخمر حينها سنتقطع صلته بالله عزّ وجلّ ، وفي موضع آخر يقول الشاعر ( ما ضرّك لو داويت ضنى .. ) حيث شبّه المعشوقة بطبيب يُداويه من مرضه ، وفي هذا الصدد قد يرى شارب الخمر في الخمرة ذاتها دواءً هو بحاجةٍ إليه أيضاً لعلاج دائه ، وفي هذا نستدلّ بقول أبي نوّاس ( ... داوني بالتي كانت هي الدّاء ) .

دائماً ما حملت لفظة العشق عديد التصوّرات والمعاني التي لها ارتباط وثيق بميدان الحرب ، ولا شكّ أنّ تصوّر العشق يَفترض وجود متحابين كما هو الأمر كذلك في تصوّر الحرب عندما تفترض وجود متحاربَين ، وعليه فإنّ الفضاء الذي يُمكن لنا إدراكه من تصوّر العشق يكمن في ( المشاكل ، الجنون ، القتل ، الخيانة ، الخصومة ، الإصابة ، الجدال ، الكلمات وهي الأسلحة .. الخ ) وهي تصوّرات يتمّ إسقاطها على ميدان ( الحرب ) وفق تفكير عميق لتتناسب معه ، فنحن نستعين بتصوّر الحرب قصد فهم تجربة العشق ، هذا الأخير عادةً ما نعيشه ونجرّبه بنفس طبيعة نزاعاتنا وحروبنا ، والدليل على ذلك هو تحوّل أغلب قصص العشق إلى خيانة ومن ثمّ إلى صدامات وحالات قتلٍ ، ورغم أنّ العشق والحرب يُعتبران شيئين مختلفين إلاّ أنّه ثمة ترابطات نسقية تتّسم بها تجاربنا ، فتجربة العشق هي أقلّ وضوحاً ممّا يُمكن إنجازه بواسطة الحرب ، فحين قال الشاعر ( ينضو من مقلته سيفاً .. ) فقد شبّه نظرات المحبوبة بسيفٍ يُخرجه من عينه ليقتلها ، لنجده قد وظّف لفظة ( السيف ) وهو سلاح في مجال الحرب ليبني به تصوّرات أخرى في ميدان العشق ، والغابة من استعمال السيف هي القتل ، وبالتالي فإنّ العشق قد يقتل بشكل إرادي أو غير إرادي من طرف صاحبه ، وعلى هذا الأساس يُمكننا بناء استعارات أو أنساق جديدة للحرب مثل ( القتل ، الألم ، جراح ، فقدان الأحبّة ، عداوة ، هدنة ، صراع .. الخ ) فسلوك الطرفين المتحابّين يطابق مظاهر بنية الحرب ، معنى ذلك أنّ إدراكات الطرفين المتحابّين توافق في جزء منها إدراكات من يدخل حرباً ، وعدد كبير من التصوّرات التي تقابل فكرة المعركة تنطبق على فكرة العشق ، وفي نفس السياق قال الشاعر ( كلاّ لا ذنب لمن قتلت عيناه ولم تقتل يده ) فهو لم يقتل أحداً بيده وإنّما قتل بعينه وهذا تعبير يلامس المجاز ، والمفارقة في هذا الكلام أنّ العاشق قد يقتل بعينه أمّا المتحارب فيقتل بسلاحه ، وأضاف قائلاً ( يا من جحدت عيناه دمي وعلى خدّيه تورُّدُهُ ) فقد شبّه خدود محبوبته بإنسانٍ يعترف بجريمته ، فوظّف لفظة ( الدم ) المتعلّقة بنتاج الحرب في فضاء معنوي وهو العشق ، هذا الأخير يُتيح لنا معرفة وفهم أنساق أخرى جديدة كالحزن والعذاب وغيرها .

**- المراجع المعتمدة في البحث :**

1 – الاستعارات والخطاب الأدبي ( مقاربة معرفية معاصرة ) ، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه ، من إعداد : عمر بن دحمان ، جامعة تيزي وزو ، تاريخ المناقشة : 03 – 07 – 2012 م .

2 – الاستعارة في ظل النظرية التفاعلية ( لماذا تركت الحصان وحيداً ) لمحمود درويش ، مذكرة لنيل شهادة الماجستير ( فرع تحليل الخطاب ) ، إعداد الطالبة : جميلة كرتوس ، جامعة مولود معمري – تيزي وزو ، تاريخ المناقشة : 25 – 12 – 2011 م .

3 – دلالات الاستعارة في شعر محمد عفيفي مطر ( ملامح من الوجه الأمبيذ واقليسي أنموذجا ) ، مذكرة لنيل شهادة الماجستير ، من إعداد الطالبة : سورية لمجادي ، جامعة وهران ، 2010 – 2011 م .

4 - مفهوم الاستعارة عند جورج لايكوف ومارك جونسون من خلال كتابهما " الاستعارات التي نحيا بها " أنموذجا ، مذكرة لنيل شهادة الماستر ، دراسات لغوية ، من إعداد : سعيدة زكراوي ، بهية بوثلجة ، جامعة البويرة ، 2014 – 2015 .

5 – ملف إلكتروني ( PDF ) بعنوان : ( البنية الاستعارية في النصّ الأدبي – مقاربة عرفانية ) ، من إعداد : أ. جعفري عواطف و د. فطومة لحمادي ، جامعة تبسّة .

6 – مقال إلكتروني بعنوان ( هل الجدال حرب ؟ محاولة في تصويب مقاصد التجادل وتحسين وسائله ) ، الكاتب : سليمان الناصر ، 2016 .

رابط المقال : http://democraticislam.org/news\_details.php?lang=ar&id=227